الفقه الاجتماعى وفلسفة الأخلاق عند ابن حزم الأندلسى

***محمد بنيعيش**

الأخلاق ليست غباء ولاهى مركبة ومطية ،ولا هى عائق وحائل بين مقتضيات السياسة والمجتمع ومطالب التقدم والازدهار وتحقيق الاستقرار. وإنما هى بناء وغذاء ودواء وشفاء، وفى غيابها لا يوجد سوى الداء، الداء الوبيل من جنس الطير الأبابيل. حيث التفتت والتشتت، والتنافر والتناقر، والجار والمجرور، والماكر والمغرور. التنزيل الأخلاقى للأحكام الفقهية وقياس الأولى وتظهر قيمة الأخلاق أكثر عند وجود حدث عام ذى بال أو زلزال اقتصادى وأمنى وسياسى، بل فكرى أيضا، قد ينال من المجتمع ككل ويهز استقراره ويقظ مضجعه، فتتضارب حينذاك المصالح وتتناقص المنافع ويضيق الحال، ثم تبدأ النفوس بنفث ما بداخلها من دفائن وذخائر وستائر ونوايا، كل له مقام وما يحتويه من سقام...

ومن هنا فأخطر ميدان يمكن له أن يكون إما عاملا لترسيخ المبادئ، وعلى رأسها العدالة والصدق فى التخطيط والتدبير، وإما مكرسا للاستغلال والأكل على جثث الأموات والمعطوبين والمصابين، هو ميدان التشريع أو الفقه والقانون ، أو الفلسفة السياسية والإدارية. فلنسم الأمر بما شئنا مادام هناك مبدأ لا مشاحة فى الاصطلاح إذا عرف المعنى. والفقه السليم هو العين الراصدة والرائدة والآخذة بناصية المجتمع ووجهته شرقا أو غربا، ولكن كماله يكمن فى: "فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا". وقبلة المجتمعات والشعوب فى باب العدالة والحكم هى تحقيق الاستقرار ودفع المشاق ورفع الحرج، والضرر يزال ... وهذه كلها قواعد فقهية متلازمة وذات أسس أخلاقية من النوع الرفيع. إن هذا الربط بين الأخلاقيات والاجتماعيات مع القواعد الفقهية سنجده عند كثير من الفقهاء المسلمين الثائرين على الأرعنين من المستغلين والمميعين لمفهوم الدين ومقاصده السامية العالية. ومن بين هؤلاء كنموذج نجد أبا محمد على بن حزم الأندلسى، الذى سيكرس هذا المعنى فى دراساته الفقهية، و سينحو باجتهاداته إلى مسالك أخلاقية دقيقة، مستشهدا فى ذلك ،ابتداء وانتهاء ، بالنصوص القرآنية والحديثية. فإذا كان أصحاب الصناعات الخسيسة ، فى نظره، كأهل التعيش بالزمر وكنس الحشوش ..تتأثر نفوسهم بهذه المهن وتظهر عليهم أعراض الرذيلة بسببها فإنه سيأخذ هذا المبدأ ليبنى عليه حكما فقهيا معطرا بأخلاقيات لائقة به، فيقول فى موضوع النفقة على الأقارب: "وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم: عقوق الوالدين من الكبائر، وليس فى العقوق أكثر من أن يكون الابن غنيا ذا حال ويترك أباه أو جده يكنس الكنف و يسوس الدواب ويكنس الزبل أو يحجم أو يغسل الثياب للناس أو يوقد فى الحمام ويدع أمه أو جدته تخدم الناس وتسقى الماء فى الطرق! فما خفض لهما جناح الذل من الرحمة من فعل ذلك بلا شك، وقال تعالى: "وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم"...."[1]. وحينما يتحدث عن المهن ،فليس معناه انتقاص لقيمتها ،ولكنه تعبير عن حقيقة نفسية لا يمكن نكرانها ،وهو ذلك الانعكاس الذى يقع على النفوس بسببها ،والذى هو فى حد ذاته من مولدات الرؤية الاجتماعية التى تعمل على تكريس الطبقية بحسب المهن فى حد ذاتها لا بمجهود الممتهن ووظيفته ومردوديته... هكذا إذن سيحاول ابن حزم الربط بين المبادئ الملتزمة ونتائج الملاحظات المباشرة ، ساعيا فى آن واحد إلى الإصلاح الاجتماعى،

[11] ابن حزم: المحلى، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ج10ص1008

عن طريق إبراز تلك المبادئ على المستوى الفقهى والقضائى لتحقيق الفضيلة ، كنتيجة تربوية وإلزام قضائى، إذا اقتضى الحال فقد تتدخل السلطة لتحقيق هذه المبادئ الخلقية، والتى صيغت عن طريق وضع اللمسات على مكامن الأدواء والأمراض التى توجد فى تجاعيد المجتمع وحناياه ومداخله الأسرية الدقيقة. التوافق الشرعى والفلسفى حول الخلق الاجتماعى إن هذا الاتجاه المنهجى فى دراسته الأخلاقية ذات المعتمد الاجتماعى لا يمكن أن يفهم بما دأبت عليه المدارس الاجتماعية الحديثة التى تريد أن تجعل من المبادئ الأخلاقية انعكاسا لما درجت عليه المجتمعات. لأن هذا قد يعنى أن علم الأخلاق مجرد مواضعة وعرف اجتماعى، وبالتالى حصر مبادئه فى وقائع آلية صدرت من مجتمعات معينة على مر الزمان حتى أمكن جمع هذه المبادئ الخلقية التى يكاد يجمع عليها أغلب العقلاء من الناس. فقد كان من أهم من تزعم هذا الاتجاه فى تفسير أصل الأخلاق بهذا المفهوم أصحاب المدارس الاجتماعية على رأسهم دوركهايم وتلميذه ليفى بروهل[٢] . الأخلاق عند هؤلاء تعتبر تتويجا لعلم الاجتماع، وهذا يستند إلى مفهوم مفاده أن "ما هو أخلاقى معطى أوليا سبق وجوده كل مناقشة نظرية ...ويكتمل هذا المفهوم بالفكرة النسبية القائلة بأن هذا المعطى يتفق مع عصر ومجتمع معينين[٣]. إن هذه الاتجاهات الحديثة التى تبنى أخلاقها على معطيات اجتماعية لا تقدم لنا حلا واضحا للمشكلة الخلقية، إذ اعتبار الشيء فضيلة أو رذيلة ليس رهينا بالوقائع والأحداث، وإنما هو تصور أولى قد يكون حدسيا ودون وسائط ومقدمات منطقية أو تجارب عملية على مستوى اجتماعى. لولا استشعار الإنسان ابتداء للقوانين الأخلاقية لما تم له الاتصال بأخيه ومعاشرته والتودد إليه وبناء هذا المجتمع،الذى أصبح حقلا تجريبيا لتلك المبادئ الأخلاقية الدقيقة فى أعماقه النفسية. الأخلاق أصلها عطاء من الله تعالى،وهى شيء ضرورى لاستمرار الحياة الاجتماعية، وليس أن هذه الأخيرة مصدر الأخلاق من حيث الابتداء، وإن كانت تساهم فى تطويرها شكلا وعادات وتقاليد. إذ لولا وجود خلق معين عند الإنسان الأول يربطه بأخيه ويصله به لما تم له تعاون معه أبدا، وإن أردنا القول فالأخلاق فرع من اللغة الإنسانية العامة التى يتم بواسطتها التعايش والتعامل الإنسانى البناء وهو ما يراه ابن حزم مبدئيا كما سنراه بالتفصيل[٤]. ثم؛إذا كان للفلسفة من هدف فى دراستها فليس ذلك إلا محاولة موافقة الشرائع التى أرسل الله بها الأنبياء ولتعليم الناس الفضائل وتحذيرهم من الرذائل. الفلسفة تبع للشريعة "والغرض المقصود نحوه بعلمها ليس هو شيء غير إصلاح النفس بأن تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد وحسن السياسة للمنزل والرعية وهذا نفسه لا غيره هو الغرض فى الشريعة..."[٥]. من هذه المفاهيم يتضح أن المرمى الذى يقصده فى قياسه للأخلاق بالأوضاع الاجتماعية يختلف جوهريا عن المفاهيم الحديثة، التى تريد أن تبنى الأخلاق على علم الاجتماع. إذ أنه يرى أن الأخلاق موجودة قبل وجود الأنماط الاجتماعية المختلفة الاتجاهات، فهى تعليم من الله سبحانه وتعالى منذ الابتداء كجنس واستعداد كلى، وهى مواهب وليست مكاسب ذاتية حينما تكتمل فى شخص ما. إذ ليس كل من يلاحظ مسارا اجتماعيا معينا يتولد لديه شعور أخلاقى ونمط سلوكى معين كما يقول: "وقد رأيت من غمار العامة من يجرى من الاعتدال وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه لكنه قليل

---

[2] عبد الرحمن بدوى: الأخلاق النظرية،وكالة المطبوعات ،الكويت ط1ص39

[3] فرانسوا غريغورا: المذاهب الأخلاقية الكبرى ص109

[4] ابن حزم الإحكام فى أصول الأحكام ،مطبعة السعادة مصر ط1-1345ص31

[5] ا بن حزم: الفصل...ج1ص94

جدا،ورأيت من طالع العلوم وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام ووصايا الحكماء وهو لا يتقدمه فى خبث السريرة وفساد العلانية والسريرة شرار الخلق، فعلمت أنها مواهب وحرمان من الله تعالى"[6]. باختصار؛ فإن نظرته الأخلاقية وعلاقتها بالاجتماع البشرى هى من باب التفاعل الحاصل بين الوازع الداخلى والمجابهة الخارجية وحدوث انعكاسات هذه الأخيرة على المسار السليم للأولى. من هنا فسينتقل الإنسان من ميدان الفضيلة إلى مستنقع الرذيلة، وليس أن أصل الأخلاق هو المظاهر الخارجية للمجتمعات التى تشكلها حسب اتجاهاتها ونشاطاتها العملية على غرار ما ذهب إليه علماء الاجتماع المحدثين –كما رأينا– لأن الأخلاق عند ابن حزم وعند المسلمين شيء ثابت قد يمكن البرهنة عليه من عدة وجوه. بهذا فإن كتاب "الأخلاق والسير" يكون قد ضم ملخص اتجاهاته الاجتماعية وارتبط عضويا بسائر مؤلفاته الأخرى، سواء النفسية أو التاريخية الاجتماعية وأيضا ما يتعلق بالفقه والسيرة النبوية بالدرجة الأولى، فجاءت دراسته فى صورة أخلاقية متميزة ومتخصصة وهادفة كما رأينا بعض جوانبها.فهل لنا من وقفة عامة لمراجعة القوانين والفتاوى والقرارات الإدارية على أسس أخلاقية عادلة ومطالب اجتماعية ضرورية وموضوعية حتى نفتخر بما حققناه وما قد نحققه؟...

[6] ابن حزم: الأخلاق والسير ص 25